الاتجاهات الحديثة في القصة السوفياتية

بقلم : خيري حماد

كثيرا ما نسمع ، ويسمع القراء معنا ، بعهد « ذوبان الجليد » في الأدب السوفياتي الحديث ، وهو اصطلاح ، ان دل على شيء ، فانما يدل ، على أن أوضاع الحياة المادية في الاتحاد السوفياتي اليوم ، واجواءه ، وامزجته ، هي غير تلك التي كانت قائمة في عهد ستالين ، وان الاختلاف كبير بين العهدين ، الى الحد الذي لا يستطيع المرء ان يصدق ، ان هذين العهدين ينتميان الى نظرة مذهبية واحدة ، تتناول كل جانب من جوانب الحياة . فلقد تبدلت هذه الحياة تبدلا كبيرا نحو الافضل ، في كل شيء . ومازالت تسير في هذا الطريق من التحول ، متحدية كل مايعتور طريقها من عقبات وموانع ، ومتغلبة على كل ما قد يظهر امامها من كوابح ، ولا سيما في ميدان الادب ، الذي تؤلف القصة اليوم اهم ناحية من نواحيه .

فقد مرت القصة السوفياتية في السنوات التي انقضت منذ وفاة ستالين ، في مراحل من التبدل البطيء الذي يتميز بالاثارة احيانا ، ويفتقر اليها احيانا كثيرة اخرى . واحد عدد من كتابها يشطون كل النشاط ، في التركيز على أحداث الحياة العاطفية بعد ان كانوا في ايام ستالين ، لايكترثون الا بالمواضيع السياسية او الاجتماعية ، والا بعوالم الصناعة والزراعة وآفاقهما . وهكذا استعادت الحياة الوجدانية الخاصة ، في عهد خروشوف جزءا من الارض التي كانت قد فقدتها في عهد ستالين .

منذ انتهى عهد ستالين ، راح الكتاب يشرعون في معالجة اوضاع الحياة على صعيدها الانساني ، واحد النقاد — وفي طليعتهم تراشيكو ، يجدون البحث عن الحقيقة من اجل الحقيقة ، كما وجه ناقد اخر . لعله بستوفسكي . نداء الى جميع الكتاب السوفيات ، ناشدهم فيه ، ان يغوصوا في اعماق افئدتهم ، وان يحاولوا

استجلاء غوامض النفس الانسانية ، ومعرفة مكنوناتها وخفياتها . واعلن بعالكوف ان جمهرة القراء ، تعودوا ان يقرأوا ، في عهد ستالين ، كل ما يبعدهم عن حقائق الحياة ، وواقع متاعب الناس وآلامهم ، وأفراحهم . كما هاجم لافريف الذي لم يقدر له أن يعمر طويلا ، القصص التي تستبدل صراعات العواطف الانسانية بالمخططات ، والناس بالشخصيات الآلية ، واضاف ان هناك قصصا لايستطيع القارىء فهمها ، وان هناك مسرحيات لايستطيع النظارة استيعابها . الا اذا حمل وحملوا كتب المراجع التقنية في جيوبهم يرجعون اليها في حل مايرونه أمامهم من طلاسم .

ولعل اروع صورة لعصر « دوبان الجليد » هذا فيما كتبه ايليا اهرنبورغ الكاتب السوفياتي المشهور ، وصاحب القصة المشهورة بهذا الاسم ، عندما لخص المعركة من اجل الحقيقة الانسانية ، واحداث المرحلة الأولى من هذا التحول الضخم في اتجاه القصة السوفياتية ، بقوله ... « ليس الكاتب الة تسجل ، وهو لايضع كتابه لانه يعرف كيف يكتب ، أو لان عليه ان يكسب عيشه عن طريق ما يكتبه ، وانما بضعه . لانه يجد أن من الضروري أن يقول للناس شيئا من نفسه . فهو كالمرأة الحبلى ، التي لابد وان تضع وليدها . وهو يرى الناس وما حوله ، وما يحس به ، ثم يجد نفسه مضطرا الى ان يصف ما يرى وما يحس به . »

وسرعان ما انعكست في السنوات الاربع التي تلت وفاة ستالين ، الصور القديمة الجامدة للحياة السوفياتية ، وانقلب كبار الموظفين الذين كانوا موضع التمجيد في أيام ستالين الى اشرار ، كما في القصة التي وضعها دودينتسيف في عام ١٩٥٦ ، والتي احدثت دويا في الاتحاد السوفياتي كله ، والتي حملت اسم « ليس بالخبز وحده » .

وقد لاتكون هذه القصة من الروائع ، ولكنها تعكس التيار الجديد الذي اجتاح القصة السوفياتية ، واعتبر بعثا هاما للتقاليد الادبية الروسية العريقة ، باتجاه تشيخوف وترجنيف وبوزين . فهي تعكس حالات اللحظة التي كتبت فيها . فقد كان الناس لايتحدثون في طول الاتحاد السوفياتي وعرضه في ربيع عام ١٩٥٦ وصيفه الا عن خطاب خروشوف في المؤتمر العشرين للحزب ، وهو الخطاب الذي حمل فيه على عبادة الفرد . وما خلقته من شرور اجتماعية ، في مجالات الحياة العامة .

يعيش بطل القصة « لوباتكين » ، وهو مخترع عبقري ، وحيدا . وسرعان ما يصبح الضحية لتعسف دروزدوف ، مدير المصانع الفاسد والمتغلغل ، والقصة هي تاريخ الصراع بين الرجلين ، بين الانسان المثالي ، والشرير المتغلغل . وكانت الطريقة المألوفة في القصة السوفياتية حتى ذلك الحين ، ان يصور البطل ، محاطا بحب العمال واحترامهم ، وتضامنهم معه ، الى ان يجيء سكرتير الحزب الواعي ، فيحدده ويبتدىء من عصب رئيسه المتغلغل . لكن دودينتسيف لم يمنح هذا المنحى ، وانما راح يصف مجموعة من الدسائس والمؤامرات الشريرة التي تقع في داخل المصنع ، وتؤدي الى اعتقال البطل وارساله الى احد معسكرات الاعتقال . ولكن يجيء عهد الانفراج ، وتتحسن الاوضاع ، فيطلق سراحه ويؤخذ باختراعه ،

ويطلب اليه ان يحتل مركزه في المؤسسة فيرفض لانه يؤثر ان يظل مناضلا طيلة حياته ، ضد البيروقراطية .

وهكذا اخذ هذا الاتجاه الجديد ، يعنى بالامور الموضوعية ، ويركز على التفاصيل والحوادث الصغيرة ، والانطباعات اليوميـــــة ، واخذت القصص الجديدة ، تعكس الانسامات والعواطف والتنهدات ، وبرزت قصص التحليل النفسي ، كما ظهرت لاول مرة منذ نحو من اربعين عاما ، قصص العواطف الغرامية ، التي تنشأ بين الرجل والمراة ، ولكن بصورة نقية وكاملة ، لا اثر فيها لاسفاف الجنس الذي يبدو في اتجاهات القصة في العالم البورجوازي .

قصصيان نموذجيان

وبرز في الحقبة الاخيرة ، قصصيان شابان من طلائع هذه المدرسة الحديثة هما كازاكوف وناغيبين . وقد لايكون هذان الكاتبان من المقروئين جدا في الاتحـــاد السوفياتي ، ولكن جميع الذين يعنون بالشؤون الادبية ، ولا ســـيما اذا كانوا من النقاد ، يولونهما اهتماما زائدا ، لانهما يمثلان شيئا جديدا ، قد لايتفق مع القيم العامة للحزب ، ولكنه لايخرج عليها ، خروجا صريحا ، فهما لايعبران عن مخالفتهما لهذه القيم بحوار مباشر ، وانما باعمالها . وتجاهل تصويرها ، وتعهد ما يعتبرانه دنياهما الخاصة ، بالعناية والاهتمام ، ولو قرأ الانسان قصة لاحدهما دون ان يعرف هويته ، لما استطاع ان يحكم على صاحبها بانه من كتاب القصة في الاتحاد السوفياتي، هذا اذا تبدلت الاسماء الروسية فيها بغيرها . ولكنه يستطيع ان يتميز فيها مشاعر انسانية تسمو على الابتذال والاسفاف .

ولد اولهما يوري كازاكوف في مدينة موسكو في عام ١٩٢٧ . فهو اذن من الذين ولدوا ونشأوا ووعوا الحياة في عهد الثورة . درس الموسيقى في صباه ، ثم عمل عازفا في احدى الفرق الموسيقية . ولم يبدأ الكتابة الا في عام ١٩٥٧ عندما اخذ ينشر بعض قصصه القصيرة ، في المجلات الادبية الشهرية ، ليجمعها في مجموعتيه نشر اولاهما في كتاب باسم « مانكا » في عام ١٩٥٨ ، وثانيتهما في كتاب آخر باسم « في محطة القطار » في عام ١٩٥٩ .

وتتركز معظم شخصيات قصصه ، على مخلوقات قدر لها ان تواجه الحياة وهي مشوهة ، او مصابة باحدى العاهات . ومن هنا يكون عنصر الاشفاق على بطل القصة الشوه ، الصورة الغالبة على القصة كلها .

والبطلة في قصة « مانكا » ، فتاة يتيمة في الرابعة عشرة من عمـرها ، تحيلة الجسم ، ذميمة الصورة ، تعمل في توزيع البريد ، في منطقة قطبية نائية ، تقع على ساحل المحيط ، وقد تباعدت مساكنها وانتشرت ، بحيث بانت الابعاد عنا نائيـــا عليها .

وتقع « مانكا » لسوء حظها في هوى « بوفيل » وهو أجمل شباب المنطقة ، واكثرهم جرأة واقداما ، مما جعله محط انظار الفتيات جميعا ، وهو يجهل بالطبع، ما تكنه له هذه الفتاة الدميمة من حب ، لاسيما وانه مشغول بحب « لنيكا » ، اجمل فتاة في المنطقة كلها .

ويقع الخلاف بين الحبيبين ذات يوم ، ويحس بوفيل ، بشيء من الاشمئزاز من جانب حبيبته ، فيستقل زورقا ، يقتحم به المحيط الذي تعلو فيه الأمواج ، من جراء عاصفة هوجاء . وتحاول « مانكا » ان تثنيه عن عزمه ، فلا تستطيع ، وتتوسل اليه بأن يعود فلا يلبي . فتستقل الزورق معه ، وتتلاعب بهما الامواج ، وينقلب القارب ويكادان يغرقان . لولا أن تتداركهما عناية الطبيعة ، فتقذف بهما الامواج على ساحل لا أثر للحياة فيه . وفجأة ، تقع عيونهما على كوخ منعزل ، وحيد ، فيؤمانه ليحققا نجاتهما ، وليبحثا عن بعض « العرد كا » . ويتحقق لمانكا حلمها ، فيحس بوفيل اخيرا بوجودها كامرأة ، ويشرع في عناقها . وهنا يقع مالا يحسبه احد . اذ تصدمه الفتاة عنها ، وتخرج من الكوخ محلفة اياه فيه .

وتنتهي القصة عند هذا الحد ، دون ان يوضح لنا كازاكوف ، لماذا تصرفت الفتاة على هذا النحو ، ودون ان يلمح بشيء الى أي من احتمالات المستقبل . فهو يترك للقارىء ان يتوقع احتمال عودتهما الى اللقاء . ملقيا ستارا من الغموض والابهام على حالة مانكا العقلية ، التي يصدرها ، بانها مزيج من الفرح والسرور والشعور بالنقص والعار .

فهي ليست في الصورة التي يرسمها ، منطقية ، أو معقولة ، بل ان من العسير حقا تحليل تصرفها في ضوء العقل والمنطق . فهي تحبه ، وهي تتحرق شوقا الى لقياه ، وعندما تحقق لها امنيتها ، تصاب بالفرح والخوف ، لتحس بعدهما بمزيج من الرضا والسخط والرغبة في الانتقام . انها تمثل الحياة لكازاكوف ، الذي يرى انها شيء لايمكن فهمه ، غني بالمفاجآت . اما القلب الانساني ، فمتغير ومندفع . وهو يريد ان يسرد القصة بعواطفه التي لاتخطئها العين ، ولكنه يرى ان اصدار الاحكام الخلقية شيء يتعدى حدود ما يريد .

وكثيرا ما اتهم كازاكوف قصته هذه وغيرها ، بالتشاؤم . فهو يصور كثيرا فشل الانسان في تحقيق رغباته . وهو في قصة « بيت تحت الهاوية » يصور شابا ، اكتشف وجود الشر الى جانبه ، ومع ذلك ، فقد استسلم له ، بالرغم من احساسه بان الواجب يدفعه الى ان يعمل شيئا لدرء هذا الشر .

يولد البطل « بلوخين » في موسكو ، الى بلدة صغيرة ، ليعمل في مكتبتها العامة ويدرس عادات اهلها في القراءة ، والاساليب التي تتبعها المكتبة . ويكون الصديق الوحيد في البلدة عند وصوله اليها مكتبتها بالنزلاء . وينشد المعونة في العثور على مأوى من موظفي المكتبة ، فيبعث به هؤلاء الى سيدة تؤجر غرفا في منزلها .

والسيدة ، انسانة عادية ، وفي منتهى الطيبة والشراسة ، لكن ابنتها جميلة ، ومطلومة ، انها محبوبة امها ، اذ لا تعرف شيئا عن العالم ، وتحس الفتاة بما تسببه اليه ، فتكثر من سؤاله عن الحياة في موسكو ، مما يضايق امها ويغضبها ، وتبالغ السيدة في مطالبته باجر عال ، كما ترفض القيام له بالخدمات العادية .

ويحس الشاب بالشر حوله ، ولكنه لايعمل شيئا لدرئه ، دائما يكتفي بالرحيل عن المنزل ، انه يرى الواجب يدعوه الى انقاذ الفتاة من سجنها الذي يعرف انها لن تتحرر منه الا بمساعدته ، ولكنه يعجز عن اداء واجبه ، ويكتفي بالجلوس في المكتبة واعداد الفوائم ، وسجلات القراء ، وما شابه ذلك ، محليا ، بين تلك الروح الشريرة الشقية وبين الدمار .

ولعل القيمة الايجابية الوحيدة للقصة ، بالاضافة الى الصور المشرقة الرائعة التي يرسمها كاراكوف للبلدة والمكتبة ، والشارع الذي يقع فيه البيت الذي اقام فيه والذي يؤلف عالما مظلما رهيبا ، هي تلك الومضة الخاطفة التي يلمح بها الشاب وجود الفتاة ، والصورة التي رسمها الكاتب ، لما اعتمل في نفس البطل من خلجات وعواطف فيها التصارع ، والتضارب ، مما يذكرنا الى حد ما ، بتلك الصور التي تسيطر على قصص تشيخوف .

وهناك قصة ثالثة ، هي قصة « الازرق والاحمر » ، وقد روى فيها كاراكوف ، تاريخ حب اليوشا لفتاة هي ليليا ، منذ كان بينهما اللقاء الأول ، في موعد فرضته القدر ، عابرا قبلتهما الأولى ، والمراحل التي تلتها ، الى ان التقت رجلا آخر ، فزوجته ، وارتحلت معه الى الشمال .

وفي هذه القصة ، يروي كاراكوف ، على لسان البطل ، وهي صيغة الحاضر ، تاريخ هذا الحب ، ولكنه كثيرا ، ما يشطح هنا ، وهناك ، شطحات لا معنى لها ، الا سذاجة وقوعها ، وكثيرا ما يلاحظ ادق تفاصيل العالم الذي يحيط به ، ويفكر في قضايا قد تبدو في منتهى التفاهة ، كقوله وعندما نمر باللافتات اقرؤها بصمت ، وفي وسع الانسان ان يقرأ اللافتات في طريق العودة ايضا ، فتظهر امامه ، وكأنها اصوات مضحكة تدق اذنيه » .

فالقصة اذن ، هي كل ما يدور في خلد اليوشا ، من افكار ، وما يسمعه من احاديث ، وما يراه من صور ، فليست فيها احداث مثيرة ، او غير عادية ، وانما هي حوادث صغيرة ، يمر بها ملايين المحبين ، لكن كاراكوف عن طريق ابراز أثر الواقع اليومي على وعي اليوشا ، ينجح في اعطائنا صورة واضحة ، عن نمو حب عنيف ، ينتهي الى حزن عميق ، عندما يفقد العاشق فتاته ، عاكسا الينا الاضواء والظلال كما يراها فؤاد بسيط سادج كفؤاد اليوشا .

وننتقل الآن الى قصة اخرى من قصصه ، انها قصة « في الجزيرة » ، وهي تصور حبا ، لا يقل في شقائه عن حب اليوشا ، ولا سيما في نهايته ، فرابانين ، بطل القصة ، رجل متزوج ، في الخامسة والثلاثين من عمره ، وهو رب اسرة ، وله

ولدان ، يوفد في مهمة رسمية ، الى جزيرة في الشمال ، حيث يلتقي بامرأة شابة، في السادسة والعشرين من عمرها ، تدعى غوستيا ، وتعمل مديرة لمحطة الارصاد الجوية في الجزيرة ، وتتعدد اللقاءات بين البطلين ، وترداد الالفة ، فيشرع في الحديث اليها عن السعادة والحب ، والحياة والشيخوخة ، وتتحول الالفة الى حب جارف يسيران في طريقه اشواطا طويلة ، تنتهي ، بالفراق ، انهما الليلة الأخيرة ، اذ سيستقل راعاني ، مركب الصيد عائدا الى البر الروسي .

وتسأله غوستيا ، وهو يهم بالرحيل ... ، ما هذا ؟ أهذه هي السعادة ، فيرد عليها بألم ظاهر ... ، اجل ، اجل ، انها السعادة ، ، فتقول والدموع تملأ عينيها ... ، آه يالالهي ! ، ... وعند بصيص في زورقه بعيدا ، وهو يقطع عباب البحر ، يعود بفكره اليها ... فيقول مناجيا نفسه ... ، اذن هي السعادة ، وهذا هو الحب !! ما اغرب ... الحب !! ،

ومثل هذه القصة مطعون بها من الناحية الخلقية العقائدية ، فهي تعرض عرضا لاحكم فيه ، الشرك العاطفي ، الذي وقع فيه رجل ، كان عليه ان يتصرف تصرفا معاكسا ، ان البطل رجل لاتشعر بالمسؤولية ، ولكن كازاكوف لايدينه ، لانه لايهتم باصدار الاحكام ، وانما كلما يهمه ، هو ان يعرض ما يحس به رجل وامرأة ، في علاقة حب عابرة ومستحيلة ، ولم يكن يهدف الا ان يرسم لوحة لاحتمالات الحب والسعادة والمرارة والألم ، انها صورة اخرى من صور الحياة ، بما فيها من غموض وتعقيد وأسرار ....

الكاتب الثاني

وننتقل الآن الى رميله بوري ياغيين ، ولد هذا في عام ١٩٢٠ ، ودرس في التصوير السينمائي ، وعمل ابان الحرب العالمية الاخيرة في الجهاز السياسي للجيش ، ثم تحول بعد ان اصيب بالخراج ، الى مراسل حربي .

وقد اصدر حتى الآن اكثر من ست مجموعات قصصية ، تتركز معظمها على نفس الافكار التي اهتم بها كازاكوف ... انها افكار الحب الذي يحمل طابع الشقاء والألم ، ويظهر في صورة غير عادية .

ويرسم ياغيين في قصته « الحب » ، صورة حب بري، يحمله ، صبي ريفي اسمه ايفور ، لفتاة تكبره سنا تسمى ناستيا ، وقد نشأ هذا الحب منذ كان ايفور في التاسعة من عمره ، ثم يغادر الفتى قريته الى المدينة ليستكمل دراسته ، وينقطع أمدا طويلا عن القرية وأهلها ، فاذا ما عاد اليها بعد سنوات ، وجد ان حبيبته ناستيا قد هجرت القرية ، ويسأل عنها ، فيقال له ، انها ، أحبت رجلا له مكانته في المجتمع ، ولكنه مالبث ان تخلى عنها .

ويلحق ايفور بالفتاة الى المدينة ، باحثا عن قلبه ، ولا يترك زاوية فيها الا

ويطرقها ، لعله يلقاها ، وأخيرا يجدها ، تعمل في غسل الأطباق في احد المطاعم ، ويتحدث اليها ، فيكتشف انهـا قد عدت امرأة متبـــدلة ، بعد ان فقـدت عذارها ، وتتهاوى الصورة المريبة التي اقامها لها في اعماق نفسه . فهي تتحدث عن الحب ، عارضة آراء جماعيا التشاؤم ، وهي تعكس له ، صورا فيها الكثير من الغموض الذي ابعدها عن براءة الفتاة الريفية الساذجة . وهي تقول له ... آه ، يا اعور ، كيف يعيش الناس ، ان الانسان لايكاد يتصور ذلك الحلم ، ، فيرد عليهـا يقول .... ، ان الناس يحيون حياة جدية حافلة بالمتاعب والمصاعب ، .

وتتصارب الانفعالات في نفس ايفور ، التي يعرضها ناعيمين بمنتهى الدقة ، مبرزا تقلبات مشاعره وتأثراته . فالفتى يكتشف انه لم يعد ، لاسباب لايستطيع ان يفهمها ، يحب فتاته التي فقدها ، اذ ان هذه المرأة التي عاد فاكتشفها ، غريبة عنه ، مجهولة لديه . لكن الوفاء يحمله على أن يطلب اليها العودة معه . فتهزأ منه ساخرة ، مستهترة ، وتتكشف له على حقيقتها الجديدة المنحطة ، امرأة مغرورة ، وضـــيعة . ويسمعها هي تتحدث الى رفيقة لها ، عن حبه ، هازئة به ، وبعد شد وجذب ، وأخذ ورد ، ترجع الفتاة الى عاشقها القديم .

ويرفض ناعيمين في قصة هذه ، كما رفض زميله كازاكوف ، الاستجابة لاغراء البساطة في تصوير الاوضاع . فهو يعرض الصورة الكاملة ، التي لا تشويه فيها . لطبيعتي ناستيا واعوجاجها ، دون ان يزخرفها أو يروقها ، لانه يريد ان يرســـم الطبيعة البشرية ، وكأنها شيء معقد ، او مختـــــلط ، لانهـا تجمع بين العوامل المتضاربة .

ويصور ناعيمين في قصة « البصة الصخرية » ، حب فتاة تحيا حيـــاة اكثر عزلة من حياة عوستيا بطله كوزاكوف في قصة « الجزيرة » . فالبطل عالم من علماء طبقات الارض . يذهب في بعثة علمية الى البقاع الجبلية النائية الواقعة على حدود افغانستان . وهناك يلتقي كاتيا ، المرأة الشابة التي تعيش وحيدة في محطة التجارب الساتية التي تتولى ادارتها . وتتوثق الألفة بين البطل والبطلة ، ويعرف منها عرضا ، انها أحست في الجامعة حتى كان يتميز بالصعف وعدم الاحساس بالمسؤولية . وعندما عينت في هذه المحطة ، سعت فاستقدمته ليعيش معها في عزلتها . ولكنه لايلبث ان يحس بالملل بعد بضعة اشهر . فيفر منها ، ومن وحدتها .

وتلجأ الفتاة الى مختلف الوسائل لمعرفة عنوانه ، الى ان تعثر عليـه ، فتكتب اليه مستعطفة ، ومتوسلة ، ولكنه يرفض العودة ، ويكون هذا الرفض في رسالة ، حملها العالم اليها منه .

ويفترق العالم الشاب عن كاتيا ، تاركا اياها في محطتها النـــائية ، تبكي وحدتها في الليل ، وقد فقدت كل أمل ، ولا رفيق لها هنـــاك في مزرعتها الا كلب صغير ، وسلحفاة ، وبعض صغار الغراب والخنازير . وهي تتحدث الى حيواناتهـــا المحتماء هذه ، باثة اياها لواعج حبها واساها .

لكن القصة ، تختلف عن قصص كاراكوف ، في انها ليست كلها من الطراز المحكم المتماسك . فكاتيا امراة باسلة ، وهي تسعى جاهدة لاحياء الامها . واحتمالها ، مواصلة عملها وكفاحها في جد ومثابرة وشجاعة . والكاتب يرسم كل هذه العواطف المتناقضة والمتشابكة ، وكانها حالات نفسية قائمة بذاتها ، جديرة بالدرس والتعمق في البحث ، وان خلا اسلوبه الادبي ، من التعبيرات الصائبة التي تميز بهـا رميله كاراكوف .

وكان « الصيد » من المواضيع التي اكثر تاغبيين من طرقها ، ولعله كان مفتدا لتورجينيف ، ومتاثرا به . وتعتبر قصة « الصيد الاخير » من اروع القصص في هذا الموضوع ، وكثيرا ما قارن النقاد بينها وبين قصة « العجوز والبحر » للكاتب الامريكي ارنست همنجواي ، واكدوا ان قصة الكاتب الامريكي متشائمة في خاتمتها ، بينما كانت قصة تاغبيين اكثر اشراقا واوسع تفاؤلا .

وتدور احداث القصة حول رجل الف الصيد حتى شاخ ، واصبحت امراته ، تخشى عليه ، في المضي اليه كعادته . وتحمي الروحة بندقيته رحلها ، ولكنها عندما راته يبكي لضياع بندقيته ، تعود فتردها اليه . ويخرج الى الصيد من جديد . ويتعمق الكاتب في وصف مغامرة الصيد ، وينتهي من وصفه الى الايحاء لنا ، بان الرجل العجوز سيموت . ويحمي الصياد ليلتقط ، اشياء له ، فيشعر بالدوار ، ويطيح في ادبه ، ولكنه يتغلب على ضعفه ، ويقتصب واقفا على قدميه ، ثم يمضي الى الغابة وقد سيطرت عليه حالة نفسية غريبة ، هي خليط من العواطف المتضاربة وبينها الاحساس بالموت .

وقد يطول بنا الحديث ، لو اننا تابعنا قصص تاغبيين كلهـا ، بالتلخيص والايضاح . ولكننا سنكتفي هنا بالحديث عن قصة اخيرة نشرها بعنوان « حوار » . وبطل القصة « ستريزه » ، انسان عادي . ما لبث ان ادى خدمة عامة ابدى فيهـا امتيازا متفوقا ، فكافاه ، رفاقه ، بتعيينه له قيمته في حياة القرية ، وهو حارس اراضيها . ويصل كاتب معروف من موسكو ، للصيد في هـذه الارض . ويلتقي ستريزه ، ويجلسان الى الشراب ، ثم يغرقان في حوار . ويحس الكاتب بالرواية لهذا الانسان الذي يقطع عليه حبل تفكيره في القصة الجديدة التي يكتبها ، فيدفعه الى الافراط في الشراب ، ليبتله ، ويصير سكوته .

وتتولد عند ستريزه الرغبة القاهرة . في ان يحدث الكاتب عن اهم ما علمته اياه الحياة ، وهو الثقة بالآخرين . ولكنه لايستطيع الافصاح عن افكاره بعد ان ثمل ، ويدخل في احاديث لاترابط بينها ، ولا صلة . ويتبين للغريب القادم من موسكو ان ستريزه ليس الا انسانا تافها . وهكذا يكون من المفارقات ، ان الرجل الـذي تعلم قيمة الثقة بالآخرين ، واراد ان ينقل ثمار تجـاربه الى غيره ، لايلقى الا الرواية من الكاتب المعروف .

ويعرض لنا الحوار بين الرجلين ، صعوبة الفهم والتعبير بين الناس ، كما يعرض لنا اهتمام تاغبيين بتصوير ما يحس به المرء من مرارة عندما يفشل في ان ينقل الى

انسان آخر ، شيئا من افكاره ، فيساق في طريق آخر ، يعرف ما يحدث له فيه ولكنه لايستطيع التوقف ، متحدثا باشياء واشياء ، لاتمت بصلة الى ما كان يريد ان يقوله – وهو يصور لنا انصاعا ودون اية لمسة من لمسات الحقد او السخرية شخصيات أولئك الذين يفقدون السيطرة العقلية على أنفسهم .

قصص جديدة

واذا ما أقبل القارىء على مطالعة ما تنشره الصحافة الادبية السوفياتية من قصص لغير هذين الكاتبين ، تبين له ان بعض الكتاب يحاولون اجتذاب قرائهم ، بسرد الوقائع المثيرة التي تدور احداثها ، في اماكن غريبة ، يحاولون عن طريقها اخراجهم عن الرتابة التي ألفوها في قصص العهد الستاليني . وليست قصة كورابينوف « الملجأ السري في الغابة » ، الا صورة تجريدية رائعة لخروب العصابات ضد الألمان ، كما ان قصة ليونيد بيرلوماسكي ، « قهوة على طريق بودابست » ، ليست الا لوحة لنضال الشيوعيين في المجر ، ضد الحكم الديكتاتوري السابق . وتتحدث قصة الريموف « افاتور ابنة خارخيلين » ، عن حملة عالم اثري فرنسي في الصحراء الكبرى وهي تجمع بين متعة « الطرافة والحملة على الاستعمار والتجارب النووية ، بينما تتحدث قصة ميير « موارت » عن حياة كلب من الكلاب البوليسية .

وهناك طراز ثالث من القصص الجديدة في الادب السوفياتي ، وهو الطراز الذي يثير المشاكل الاجتماعية والاخلاقية . وقد اكتسب فوروبين الشهرة الذاوية بقصتين من هذا الطراز تحدث في اولاهما « الدانوب الازرق » ، عن الصداقة بين رجلين ، تنقلب الى عداء مستحكم ، ينتهي بالشجار الذي يطوح باحدهما الى السجن وبالآخر الى المستشفى ، وتحدث في الثانية – وهي قصة « العودة الى البيت » عن مشكلة الخيانة للوطن .

ويعرض فوروبين في الاولى ، قصة رجلين صديقين ، يتقلبان الى عدوين ، ثم يتشاجران ، فيحطم احدهما فك الآخر ، ويقضي عليه بالسجن عاما ونصف عام . وعندما يطلق سراحه ، يقصد صديقه ليعتذر اليه ، فيبادره هذا بطعنة مدية ، تودي به الى المستشفى كما يؤدي بالمرء الى السجن . وتصور الكاتب في قصته هذه ، العداء بين الرجلين ، على انه شيء يخلو من المنطق ، والعقلانية ، ولكنه لايستطيع ان يعزو ايا منهما هو المخطىء ، أو أي نقع اخطيئة حقا ، وانما يحملها الى القدر ، او الى تلك القوة الشريرة التي لاتقاوم في الطبيعة الانسانية .

اما في قصته الثانية ، فهو يثير موضوعا اكثر تعقيدا . فالبطل جندي سوفياتي ، عاد الى قريته من اسر الالمان ، ليجد فاسيلي ، يعيش هانئا في بيته مع زوجته واطفاله ، ويبدو الاسير العائد ، انه كان قد رأى هذا الشخص أو من يشبهه ، حارسا بخدم الالمان . ويتحدث الرجلان ، فيعترف فاسيلي بالحقيقة ، قائلا ... « لقد أردت أن اعيش » ، ويتوسل الى البطل الا يشي به ، عارضا قصية تستعر

الاسحاق على أولئك الذين صمدوا عندما واجهوا الموت ، فحافوا وطنهم ، ثم أفلحوا في العودة الى صفوف الشرفاء بعد ان أحرزوا حياتهم .

وكان على ايمان ان يقرر ، هل ، يحطم حياة فاسيل وعائلته ، او يترك القرية دون ان يشي به . ويحدث نفسه قائلا « لقد انتهت الحرب منذ سنوات طوال ، ولكنها مازالت دائرة في حياتنا ، ان فاسيل يستحق شفقتي » .

لكن هذا الموقف المطوف المارق على رجل خائن اثار غضب الكثيرين من القراء والنقاد .

هذه صور خاطفة ، رأيت ان اعرض فيها لمحا عابرة من الاتجاهات الحديثة في الادب السوفياتي وهو الادب ، الذي انطلق من جديد ، وفي عهد خروشـــــوف ، ليرسم الحياة بواقعها وآلامها وعواطفها واشراقها .

ولعل خير ما نختم به هذا الحديث لاعطاء الصورة الصحيحة ، لهذه الاتجاهات، هو ما قاله ايفان اليسيموف الناقد المعروف ، ومدير معهد جوركي للادب العالمي في مقال له عن القصة الحديثة ... « اصبحت القصة الحديثة هي مدار الحديث والنقاش بين أدباء العالم . وقد اتضح ان هناك اتجاهين يتباينان كل التباين ، في النظر الى القصة كفن من فنون الحياة . فالاتجاه الاشتراكي يرى أن من واجب القصة كفن ، ان تؤدي دورا بارزا وفعالا ، في خلق قيم اجتماعية وانسانية جديدة . فهي عمل ايجابي بناء ، يسهم في اقامة المجتمع الاشتراكي السليم .

« اما الاتجاه الثاني فيقول بان القصة قد فقدت كل صلة لها بالمجتمع ، ولم تعد تكس في العالم البورجوازي الحديث ، الا كل معالم الانحلال الروحي .

« وهكذا يقوم الصراع بين البحث عن القصة التي تخلق الكمال الانساني وبين القصة التي تنشد انحلال البشرية وتفسخها » .